في حرية الإعلام!

بدأت المعلوماتية، كما الرأس مالية، بكونها نظرية علمية مجرَّدة، وتحوَّلت، هي أيضا، ديانة تسعى لتحديد الصواب والخطأ. وإذا ما سلَّمنا بأنّ الحياة دينامية معلومات وان هذه الحياة حسنة، تأتّى من ذلك ان علينا أن نعزّز تدفّق المعلومات ونوسّع مدى انتشارها في العالم بأسره. التجارب البشرية، في نظر المعلوماتية، ليست منزّلة والإنسان العاقل ليس ذروة الخلق ويأولى حجة لا يُعقل أن نؤلهه. بات البشر أدوات لصنع «انترنت لكل شيء» ينبثق من أرضنا إلى كل مجرة بل الكون بأسره. إنّ منظومة معالجة المعلومات لما أنجز حتى الساعة! انها متوفّرة أينما كان وتراقب كل شيء ويتحتّم على البشر كافة أن يندرجوا في إطارها.

استذكر هنا بعض الرؤى الدينية التقليدية. فالهندوس يعتقدون ان البشر في وسعهم بل من واجبهم أن يندمجوا في النفس الكونية – وهي ما يدعونه «الآتمان» (atiman).

ويعتقد المسيحيون ان القديسين والأبرار تغمرهم، بعد الممات، نعمة الله اللامتناهية، في حين ان الخطأة يُحرمون حضوره الإلهي البهيّ. وأهل القرآن الكريم يهديهم كتابهم إلى الصراط المستقيم.

المعلوماتيون يفسّرون لأولئك الذين ما زالوا يعبدون أناسا من لحم ودم انهم متخلفون عن الركب التكنولوجي. التكنولوجيا متقدمة على الذكاء البشري في أمور كثيرة. وهي تنطوي على ارشادات ووصايا. وهذه تمسّ الأشياء أيضا. إن آخر دفعة من القيم قد تناولها القرن الثامن عشر، في إطار الثورة الانسية، فهناك الحرية والمساواة والاخوة. وبدءا من عام ١٧٨٩، وعلى الرغم من الحروب والثورات والانقلابات، قلما تجلت لدى البشر قيمٌ جديدة. لذا، ان تعاقب النزاعات قد حصلت بموجب القيم الثلاث تلك أو بموجب قيم أقدم كالتي تتمشّى على تعاليم الله أو مبادئ الأمة. وجسّدت المعلوماتية أول حركة أوجدت، منذ عام ١٧٨٩، قيمة جديدة هي حرية الإعلام والإستعلام.

يجب ألا نخلط بين حرية الإعلام ومشتقاته، والقيمة الليبرالية القديمة في حرية التعبير. مُنحت حرية التعبير البشر وحمت حقهم في التفكير وقول ما يشاؤون – ولا نستثني هنا حقهم في لزوم الصمت وحفظهم فكرَهم في ذواتهم. وبعكس ذلك، ان حرية الإعلام ومشتقاته لا تعطي البشر. ولكنها تؤثر في حريتهم التقليدية للتعبير، مشدّدة على حق الإعلام في الانتشار الحرّ متجاوزا حق البشر في حيازة المعلومات وتقيّد حركة هذا الحق.

تماما كما ان رأس ماليي السوق الحرة يؤمنون بيد السوق الخفية، كذلك ان اتباع شبكات المعلومات يؤمنون بيد تدفق المعلومات الخفية.

لقد أمسى الشعار الجديد في الحياة: «إنْ أنتَ اختبرتَ أمراً ما، سجّله. وإنْ أنتَ سجّلت شيئا، قمْ بتحميله. وإنْ أنتَ فعلتَ، شارك فيه».

الإنسان متفوق، لاعتبارات عقلية واضحة، على الحيوانات. بيد ان التجارب البشرية لا تتفوّق في ذاتها على تجارب الفيلة والكلاب. ولكنّ البشر شأنهم أن ينشئوا القصائد والمدونات حول تجاربهم وينشروها ليثروا المنظومة العامة للمعلومات. فتتجلى التفاصيل على جانب من الأهمية.

هل تبقى ثمة حاجة إلى الوعي والتجارب الشخصية في ظل المعلوماتية المتقدّمة؟ ردّاً على ثورة القرن الثامن عشر الانسية التي تقول بأن الله هو صنيعُ الخيال البشري، ها ان المعلوماتية تعتبر ان خيال البشر هو مجرّد نتيجة لمعادلات بيوكيميائية.

ستستمرّ الثورة المعلوماتية سنين طويلة، سيتفاقم عدد البشر الآليين والكمبيوترات المطّلعة على كل شيء. يبقى الحب هو الذي تفتقر إليه هذه كلها. مع ذلك، في حين ان الثورة الانسية دعت إلى الوقوف على المشاعر، دعت المعلوماتية إلى الاستماع الى البيوتكنولوجيا، وهذه تعلم كيفية مسير وجداننا. ان أساس المعلوماتية بشري ولا شك، ولكنها، في مرحلة ما من تطورها، تنطلق على ايقاعها الخاص في معزل عن إدراك البشر، ولا تعود تتطلع إلى غايات بشرية، أو تدرك ما ندعوه العقل الباطن أو اللاوعي.

ومَن يعش يرَ!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه